الرواية البوليسية الجزائرية وتقويض الفحولة والفساد

- الرواية مؤسِّسة للثقافة الوطنية-

The Algerian detevcnotive vel and the undermining of viritily and corruption '' The Novel as a *Foundation of National Culture"*

عبد القادر عويسي*

نبيل محمد الصغير♣

تاريخ الإرسال: 2024/06/28	تاريخ القبول: 2025/07/18	تاريخ النشر: 2026/06/10

الملخص:

تتناول الدراسة موضوع الثقافة الوطنية في الرواية البوليسية الجزائرية المعاصرة، وذلك بالتركيز على قضايا الفحولة والفساد و تقويضها، من خلال رواية طير الليل لعمّارة لخوص التي تبرز تجلي الهوية الثقافية وتحدياتها في المجتمع الجزائري، هذه الرواية التي تؤكد على نقد النسق الثقافي المتمثل في الفحولة التقليدية وتبيان أثرها السلبي على المجتمع عموما والمرأة خصوصا، بالإضافة إلى الفساد السياسي والاجتماعي الذي يؤدي بدوره إلى انهيار القيم وتفشي الرشوة والتمييز، كل هذا كان وفق مقاربة ثقافية جعلتنا نتغلغل داخل كوامن أنساق هذه الرواية للكشف عن كيفية تقويضها، بدافع التأكيد على أهمية الهوية الوطنية الجزائرية الأصيلة وضرورة التمسك بها ودحض كل دخيل عليها كتصدّ لعواقبها.

الكلمات المفتاحية: طير الليل، التقويض، الثقافة، الفحولة، الفساد.

***جامعة: مولود معمري تيزي وزو (الجزائر)، مخبر تحليل الخطاب.**
abdelkader.aouissi@ummto.dz

♣جامعة: مولود معمري تيزي وزو (الجزائر)، مخبر تحليل الخطاب.
Nabil.mohamedseghir@ummto.dz

Abstract:

This study deals and examines a very important topic of the national culture throughout the modern Algerian detective novel. It focuses on different aspects of masculinity and corruption. Ammara Lakhous' novel "The Night's Bird" highlights the cultural identity and its challenges, and the obstacles inside Algerian society. It emphasizes critique of the cultural norms represented by masculinity and demonstrates its negative impact on society in general, especially on women.

Moreover, it addresses political and social corruption that leads to moral decay, bribery, and discrimination.

All this was done up to a certain cultural approach that made us penetrate and delve into the layers of the novel to uncover how these issues are undermined, focusing on the importance of authentic Algerian national identity and the necessity to defend, fight, and protect it against any external influences.

***Keywords**: The Night's Bird, subversion, culture, masculinity, corruption*

*** *** ***

المؤلف المرسل: عبد القادر عويسي، abdelkader.aouissi@ummto.dz

مقدمة:

إن مواجهة الفحولة والفساد واقعيا وداخل التخييل الأدبي يتطلب توفر أدوات فعالة تُحدث نجاعة آنذاك، والرواية البوليسية عموما والجزائرية على وجه الخصوص من أهم الأسلحة الأدبية استعمالا في ذلك، كيف لا وهي التي تحتوي في طياتها صورة تخييلية عن الواقع الجزائري الاجتماعي والسياسي بكل تفاصيله العميقة من تهميش واستعباد وفساد تدميرا للهوية الوطنية بثقافتها، والتي ظل الشعب الجزائري يقاوم دون أن يدخر جهدا في حمايتها، وعلية قد أدت الرواية الجزائرية البوليسية التي تدعم ضمنيا الثقافة الوطنية في ذلك برؤيتها الدقيقة وأبعادها اللامتناهية رغبة في تقويض هذه المركزيات التي حالت دون العيش في حرية تضمن الحياة الهنيئة ماديا ومعنويا.

وتعد رواية طير الليل لعمّارة لخوص أبرز العناوين الممثلة لهذا التيار، واختيارنا لهذا الموضوع يهدف إلى تبيان دور الأدب في مواجهة هذه المظاهر وتقويضها، والتزام الأدباء بذلك وسعيهم الدؤوب إلى تحديد المشاكل واقتراح حلول تضمن العيش في كرامة، دون المساس بمقومات الأمة.

على ضوء ذلك سنحاول أن نتطرق إلى موضوع الثقافة في الرواية البوليسية الجزائرية المعاصرة، ومختلف الظواهر التي ساهمت في إثراء هذا المجال والتحديث فيه وتطويره، ثم سنتعرض إلى تشكلات نسق الفحولة والفساد في رواية طير الليل وتقويضه من قبل عمّارة لخوص، من خلال الولوج لمختلف المجالات التي رأينا بأنها تحتوي صورة كافية توضح هذا التقويض.

وعليه، ستسعى هذه الدراسة لتبيان دور الرواية البوليسية الجزائرية في تقويض أنساق الفحولة والفساد في رواية طير الليل لعمارة لخوص أنموذجا-، من خلال الإجابة على الإشكالية التالية: " كيف قوّضت الرواية البوليسية الجزائرية نسق الفحولة والفساد؟ وكيف أسست الرواية للثقافة الوطنية؟

ولتحليل هذه الإشكالية لابد أن نعالجها بمقاربة نقدية ثقافية أساسها التعرض إلى الشخصية الرئيسة في النص وحالتها المعقدة بين الثورية والفساد والسيطرة، ثم التعمق في الأنساق الاجتماعية الجزائرية الموجودة ضمن الرواية كالفحولة والتيارات الثقافية القديمة وتهميش المرأة، لنصل في الأخير إلى تبيان تأثير الثقافة القديمة والاستعمار على الهوية الجزائرية ورغبة الكاتب في تغييرها وإصلاحها بكشف الستار عن الفساد الوارد فيها وتقويض الأنماط المنتشرة في المجتمع الجزائري آنذاك.

2. الثقافة الوطنية في الرواية البوليسية الجزائرية المعاصرة:

من أهم المواضيع الذي التي تناولتها الرواية البوليسية الجزائرية عموما والمعاصرة على وجه الخصوص، والتي ما تزال تظهر للعيان بأنها مجال ثري حتى الآن، نظرا لأهميتها وارتباطها وتمسكها بالمجتمع الجزائري الحديث موضوع الثقافة الوطنية، وحمايتها وتثبيتها وتخليصها من الشوائب التي تعكر أصالتها، و"أعترف هنا بأن جنود العربية أو التعريب في

هذه المرحلة المبدئية كانوا على تفاوت كبير من الوعي تجاه تصورهم لأهمية المعركة" [1]، خاصة ما يعترك داخل مجتمع يقوم على ركام ثورة هدفت لإحيائه من جديد، وعلى سبيل المثال مواجهة نسق الفحولة الضارب في عمق الهيمنة والسيطرة اللاعقلانية التي تخضع للنفس، إذ يُعد أبرز أسباب ظهور الفساد، ومن أهم الأعمال الروائية المتطرقة لكذا مواضيع رواية "زينزيبار" لعبد القادر ضيف الله ورواية "المجانين لا يموتون" لآمنة حزمون، و رواية "ثابت الظلمة" لأمل بوشارب، و رواية" شياطين بانكوك" لعبد الرزاق طواهرية، إلا أن عمّارة لخوص في روايته البوليسية "طير الليل" له خصوصيته دون شك في التطرق لهذا الموضوع، لا سيما وهو المدرج ضمن مواضيع ديكونولیالية، عايشت مراحل ما بعد الاستقلال حيث أعطت نقدًا جريئًا لنسق الفحولة والفساد في المجتمع الجزائري، عبر شخصيات معقدة حُبكت أحداثها بمتعة وإثارة.

وهذا النوع من الروايات البوليسية يبين طريقة تمكن الفحولة التقليدية من ترسيخ الفساد وجعله أساسيا في المجتمع، حيث يصير الوقوف أمامه ومواجهته أمرا خطير تمثله عواقب وخيمة هدفها تحدي هذه التقاليد على أمل أن يكون خطوة نحو مجتمع أكثر عدالة ومساواة، فمواجهة الفحولة مجال تخييلي مهم في الأعمال الأدبية حين يثبط نوايا الذكورة المقيتة في إعلاء ثقافة تحكمها بطريركية تمنع المرأة مكانتها في المجتمع وتسلبها حقها في العيش بمقومات تضمن لها أن يكون الجميع في مساواة، وإحلال كل ما هو ذكوري فحل بديلا لها ولو يؤدي ذلك إلى اللاعدل، فهذا في الأصل كإجابة عن سؤال غايتري سبيفاك: هل يستطيع التابع أن يتكلم؟ فالجميع يدرك طباع المرأة حين تتمسك بزمام الأمور ولو عبر فرصة ستعمل عبرها على إثبات هويتها "لأن لحظة امتلاك مشروعية الفعل والقدرة على تنفيذه قد جعل الذات قادرة على التحكم بأفعالها واختياراتها الشخصية، وتحمل نتائجها التي كانت تخشاها كثيرا وتتعامل معها بحذر من قبل"[2] لينتج عن هذا التحدي أعمال وردود أفعال وكأنها تمردات رافضة للنظام الذكوري، الذي يريد سلب هوية المرأة كافة بل ويسعى لإحلال الفساد، وكما هو معروف أن موضوع الهوية في حد ذاته شائك التفاصيل، تارة يأتي لترشيدها وتبيان السيئ والجيد منها، وتارة أخرى ليدل على الوحدة والاستمرارية والتعاون ضد كل من أراد استلابها، واستبدالها بشيء من التسلط والهيمنة التي تفضي أخيرا إلى الخراب والجشع.

وما إن يذكر هذا الموضوع - أي الهوية أو الأنساق الثقافية - إلا ويتبادر إلى الذهن وجود طرفين متناقضين يشكلان مفارقة تأخذ بنا إلى الكشف عن بؤره العمل وتوضيح الرؤية للمتلقي، ألا وهما الأنا والآخر، والفحولة خير مثال على ذلك، أضف إلى ذلك العولمة وما أحدثته من انقلاب في الموازين، عبر انسلاخ ثقافي وتغيير للموازين وتغليب عنصر على عنصر آخر بدافع المركزية والهيمنة، وهذا مكن لوقوعه في خدمة سياسات التسويق والاستهلاك، المؤدية إلى ارتفاع نسبة التجانس بين بني البشر.

فالأمر جلل بأن تحيى بثقافتك وتنصهر فيها كالجمر بين أصابعك وبين أفرادك الذين وجب عليهم أن يكونوا سندا لك وأكثر مساعدة وتوجيها، وأمامك كل السبل لتفادي ذلك والعيش في رغد لا حدود له: "فمنذ سنوات الطفولة تعرفت على ثقافات محلية متنوعة في الحجاز... كان لكل منطقة من هذه المناطق لهجتها الدارجة التي تختلف تماما عن لهجة بقية المناطق، مع ثوره المواصلات والاتصالات بدأت الفروق بين اللهجات تزول ... لم تحصل الجزائر على سبيل المثال على الاستقلال إلا في مطلع الستينات، إن حضارات العالم المختلفة مدعوة الآن إلى أن تنصاع لتعليمات الغرب الذي تحولوا إلى مبشرين بحقوق الإنسان"[3]، وكل هذا كفيل برؤية مدى شراسة الحرب في المجتمع الجزائري الذي تأصّل بعادات وتقاليد تقوم على المودة والرحمة بين أفرادها لتمكين الثقافات الأصيلة التي عبرها تُبنى الحضارات والأمم، و محو عادات دخيلة تدعو إلى الانصهار في ثقافات غيرنا بسلب حق لا يعود لك وامتهان السلطة على من يحتاج رأفة ورحمة في ذلك.

والأنظار في العالم الآن وقبل ذلك ومستقبلا تتوجه نحوك رغبة في أن تخطئ فينتهزون الفرصة لاستغلال وضعك، فما بالك باستعمار غاشم كرس كل إمكاناته لمحو الثقافة الجزائرية أبا عن جد، وهذا ما لم يرضه مثقفونا، حين عمدوا إلى نشر الثقافة الوطنية - في الأدب الجزائري عموما وعبر الروايات خصوصا- بكامل مقوماتها والترغيب في تثبيتها والتمسك بها، والترهيب من الاستغناء عنها والتداعيات التي تنجر بعدها عدا تلك التي تشين المجتمع كافة: "إن الذي يجمع بين هذه الأعمال الأدبية الروائية جميعا وعلى اختلاف أساليبها وطرق التناول فيها_ مع كونها جميعا ستظل تحت مظلة الواقعية الواسعة_ هو هذا الحس القوي في التعامل مع واقعنا الجزائري الفني، بما فيه من تنوع

قضاياه الكبرى وقضايا تطوره وتجديد المجتمع الجزائري لمرحله ما بعد الاستقلال"[4]، عبر هذا نرى أن الثقافة الوطنية بهويتها المعهودة وواقعها الممزوج بين المرارة والحسن قد تمكنا في الرواية البوليسية الجزائرية، بمختلف مزاياها المتكاملة، حين دافعت عن قيم مثلى وعملت على تثبيتها ورسم صورة عبرها للمجتمع الجزائري بمختلف مراحله، خاصة تلك التي سبقت وتلت الثورة المباركة.

ليتجلى رفض أشكال تمثلت في ذكورة تقليدية لأنها تزيد عن حدها لتؤدي إلى الفساد الذي لا يتفق مع الشخصية الجزائرية التي تتضمن داخلها الثقافة المتشبثة بالعروبة والإسلام، وعاداتها وتقاليدها وبيئتها البسيطة الضاربة في عمق التاريخ، والرواية تؤكد ذلك حين ذكر السارد وهو يبين أسمى قيم الثورة الجزائرية وأهدافها أنه: "كان هدف هذا الامتحان هو الاحتراز من أي محاولة اختراق صفوف جبهة التحرير، اجتاز عباس الامتحان بنجاح، إذ طعن جنديا في رقبته على مقربة من ساحة الانتصارات بينما تمكن إدريس من إلقاء قنبلة يدوية في مطعم قريب من واجهة البحر"[5]، فالاستعمار الفرنسي بقوته رفقة جميع التيارات المناهضة لاستقلال الجزائر عمد إلى أن يقضي على هذه الفئة الثورية ويُحل محلها فئة متسلطة تتجبر - ولو على الأقارب - لأجل استلاب الهوية كلية، دينا ووطنا ولغة، والأديب الجزائري حاول ولا زال يحاول تقديم إضافة كبيرة تدعو للحفاظ على الثقافة الوطنية الجزائرية، مبينا ديدنها و خصال أصحابها الحميدة وتصحيح السيئ منها، والنوايا الدنيئة للذين أرادوا طمسها و استلابها دون أدنى حق.

3. تقويض نسق الفحولة ونسق الفساد في رواية "طير الليل" لعمارة لخوص:

إن الأنساق الثقافية بأنواعها جوهر اهتمام النقد الثقافي حين تتمثل في شكل منظم عبر قوانين تجعلها تحلل الخطابات المتنوعة ظاهريا وباطنيا، مع أنها تحيل إلى الكشف عن مختلف العلاقات التي تتضمنها الأعمال الأدبية عموما، ومن التعريفات الموضحة لمفهوم النسق اعتباره:" تركيبة اجتماعية منغرسة في أعماق الخطاب، تعبر عن الصورة الاجتماعية والثقافية لمجتمع ما، يصعب اكتشافها بالقراءة السطحية كونها تختبئ خلف السطور، والنسق الثقافي هو عنوان المجتمع وهويته" [6]، ولهذا السبب عمد عمّارة لخوص إلى تناول عدة قضايا اجتماعية وسياسية بأنساق ظاهرة ومضمرة تضفي حسا

فنيا على عمله الروائي، لتمثل بدورها المجتمع الجزائري وهو يعيش أوضاع ما بعد الثورة من جميع جوانبها السياسية والاجتماعية...إلخ.

فرأى الأديب بإعادة إصلاح جزء من هذه الخصائص الكامنة داخل هذه الأنساق وتثمين الباقي على أمل أن تُرسّخ وتُجسد في أذهان الجيل الصاعد، عبر طريقة أكدت أن "الكلمات نفسها لا تدل على الأشياء نفسها بل هناك إزاحات معرفية وأرضيات تحتية تغيّر الواجهة، فكل عصر معرفي وتنسج تصوره الخاص حول الحمق والجنس والمعرف والسلطة"[7] وهذا دليل على أن اللغة ليست ثابتة في معناها ولا يمكن أن نخذها على محمل المعنى الصريح دائما، بل تتجسد بأنساق تتأثر بالتحولات التي تطرأ على الزمن والثقافة والمعرفة، ولكي تُفهم وجب إدراك السياق التاريخي والثقافي لكل الجوانب المحيطة بها، وهذا ما يعكس طبيعة التحول المستمر في الوصول إلى الحقائق الاجتماعية ومن أهمها ما تعيشه المرأة وسط مجتمع أبوي ببطريركية ترأست جل المواضيع المراد تقويضها وتهديمها جرّاء عواقبها الوخيمة غالبا، إذ تنتهي بهيمنة مبالغ فيها يكسوها فساد من جميع جوانبها، والمتضرر الوحيد هو المرأة وضياع المجتمع.

وتقويض الإيديولوجيات في الأدب الجزائري عبر الرواية البوليسية أتى كرد فعل للواقع المعيش الذي نتج عبر اختلال في موازين الهوية، إثر هيمنة وتسلط ذكوري فرض فساده في الواقع وتمكن منه، ممّا أكسبه مكانة يخاف فقدانها واستبدالها بما يكون نقيضا إيجابيا لها، وهذا ما ناقشته رواية طير الليل وعمدت إلى سبر أغواره وتأثيراته على ثقافة المجتمع، "فالقراءة التقويضية هي قراءة مزدوجة تسعى إلى دراسة النص (مهما كان) دراسة تقليدية أولا لإثبات معانيه الصريحة، ثم تسعى إلى تقويض ما تصل إليه من نتائج في قراءة معاكسة تعتمد على ما ينطوي عليه النص من معان تتناقض مع ما يصرح به" [8]، إذ أن القراءة التقليدية تدرس النص وفق ما هو متعارف عليه سابقا عبر اكتشاف الحبكة وفهمها رفقة الشخصيات والأحداث وترتيبها في النص ...إلخ، وتكتمل مسيرة التقويض حين يتم التمكن من المعاني الصريحة والذهاب نحو تقويضها وهدمها بشكل يعاكس ما أتت عليه سابقا، وذلك باستنتاج المعاني الضمنية التي تتناقض مع المعاني الصريحة السابقة.

1.3 نسق الفحولة:

يعتري الخطاب الأدبي أفكار ومقاصد يريد الأديب أن يوصلها عبر أنساق يبثها في عمله بفنية تفصح عن الصريح وتذر المكنون للمتلقي حتى يكتشفه، فنسق الفحولة (الذكورة) يتعلق بما سبق من الموروث الثقافي العربي الذي تأصل في فكر كل فرد ينتسب إليه رغم مرور مدة زمنية كبيرة عليه، وهذا ما يجعلنا نجده متجسدا في الثقافة الحالية على شكل قسوة وأنفة وخشونة وقوة وفحولة و شدة...إلخ، ويتعدى ذلك إلى أن يجعل صاحبه يتعدى حدوده بكل سلطة وهيمنة ووقاحة ليقع في المحظور، فهو كما يرى عبد الله الغذامي بأنه:" نسق منغرس في الوجدان الثقافي، ممّا ربّى صورة الطاغية الأوحد (فحل الفحول)"[9]، وهذا ما أورده السارد في روايته لمّا أراد أن يعبّر عن شخصية ميلود صبري السياسي المحنك صاحب الشأن الكبير في الدولة، والذي يلقبونه بـ"طير الليل"، كل هذه الصفات والامتيازات كوّنت شخصا متجبرا يحب نفسه فقط ويُتبعها هواها دون أن يبالي بأحد" [10]، لا يريد أن يقضي بقية عمره يتوكأ على عصى أو يمشي كالأعرج، لا يريد شفقة الأصدقاء أو شماتة الأعداء" وهذا يدل على عشق ميلود صبري لنفسه بأن تعيش في مكانة مرموقة بكل علو وتكبر، مع السعي بشدة نحو الخلود وحب الدنيا وهو أمر مذموم تماما خاصة و الشخص يعرفه الجميع ظاهريا بأنه ثوري من الدرجة الأولى، بالإضافة إلى رفض الأصدقاء وتعاونهم معه والانذلال أمامهم كثقافة راسخة لا يجب أن يحيد عن مضمارها.

ومن جانب آخر تتجلى الفحولة كنسق أيضا في تعارض وتناقض مع طرف آخر ألا وهو المرأة، فلطالما اتسمت الذكورة بالقوة والخشونة المؤدية إلى السيطرة بشتى الوسائل وعلى جميع المجالات ومنها المرأة التي مهمتها حسب هذا الصنف من الذكور إشباع حاجاتهم الجنسية وفق خصائصها الجمالية الموجود فيها دون أن تشترط وجود فحل جميل مثلها، وهذه الفكرة أساسية أراد تغييرها نظرا للظلم الحادث في المجتمع فأوردها في عمله وفق النسق التالي كخصائص لشخصية ميلود صبري حين :" نظر في المرآة...ورأى جسده العاري يتوسط السرير، لم يكترث للكرش البارز والعضلات المترهلة والشيب الذي غزا كليا شعره، لم يربط بين الجمال والرجولة يوما ما، ومن عاداته ترديد المثل: الزين للنساء"[11]، أي أن الجمال مقترن بالنساء فقط دون الرجال الذين يحللون ويحرمون وفق ما يتشهون، وهذا

ما سيسبب ظلما كبيرا في المجتمع ينجر عنه اختلال في الموازين وتبعات لا يُحمد عقباها، فثقافة طير الليل لم تكن وليدة اليوم بل نشأت عبر أعوام وأعوام تحكمها خلفيات وتحولات تسير نظامها التكويني جعلتها تستقر عند هذا الحد، وقد أشار الداوي إلى مفهوم الثقافة النفسي عند فرويد والتبعات الاجتماعية والأخلاقية التي تنجر عنه، عند اللجوء لهذا الجانب، فقد قال: "في تقديرنا: إن الإحساس بالقومية الثقافية والوعي بها لا يصطنع أو لا يُصنع صُنعا، وإنما هو دائما كالمكبوت في حالة الكمون، يستيقظ ويشتد خاصة في ظروف التحولات والانتقالات الحاسمة، تلك التي في غالب الأحيان تتسم بطابع مأساوي"[12]، فالأمر الوارد هنا هو العمل على مجابهة هذه الاختلالات والقضاء عليها وكسر شوكتها، ولن يكون هذا إلا بالافتخار بثقافتنا العربية الإسلامية الأصيلة دون الدخيلة منها، والاعتزاز بمقوماتها وبذل جهد في نشرها حتى نعطي حقا للطرف الآخر ونُكسب أنفسنا قيمة تجعلنا في مقام الاعتزاز القوي الذي يوفر الكرامة لبني البشر والعيش حينها في اتزان مع التعرف على مختلف الثقافات، والتأثر بها وأخذ كل ما هو إيجابي منها وفقط، وقال الدواي في هذا الصدد:" نحن نفهم من الهوية الثقافية قبل كل شيء الشعور بالاعتزاز القوي بالانتماء إلى الأرض والتاريخ المشترك وإلى الوطن الذي يحمي الكرامة ويوفر الإحساس بالأمن والأمان "[13]، فدراستنا هذه تأتي الدراسة كمحاولة لتبيان الجهود المبذولة من طرف الأدباء الجزائريين في مواجهه هذا هذه الأنساق التي لا يتفق عليها عاقلان، خاصة والتاريخ حافل بأحداث أبت إلا أن تجعل الفرد الجزائري بهويته وشخصيته في صراع دائم لأجل البقاء أو الذوبان فيها كائنا من كان.

ونختم تقويض نسق الذكورة بهذه الفكرة الدخيلة على الثقافة العربية الإسلامية وقد حذر منها المشرّع في العديد من المرات مخافة ارتكابها، وهو اللجوء إلى العلاقات المحرّمة بداعي الحرية دون الزواج الذي يرونه سجنا لا مفر منه، ويعتبر هذا النوع من العلاقات ميزة خاصة تتصف بها السلطة الذكورية التقليدية وذلك باتباع الشهوات رغم معرفة الحدود، وعمّارة لخوص كان لهذه الفكرة بالمرصاد فسلط الضوء على الشخصية المهمّة في النص الروائي " طير الليل" حين قال كريم سلطاني (شخصية تمثل دور العقيد): "إنه يحبها ولكن في الوقت نفسه لا يريد أن يفقد حريته..أمّا الزواج فلا يفكّر فيه

إطلاقا"[14]، وهذا من أشد مخاطر التثاقف غير المدروس بسبب العولمة التي صورت لنا الحضارة الغربية بأن أصحابها في نعيم مقيم، ممّا جعل الفرد العربي عامة والجزائري على وجه الخصوص يسعى جاهدا ليمثل تلك الصورة وللأسف على حساب الدين والزواج نصفه، ليس هذا فقط بل والرؤية السلبية التي رُسمت في أذهانهم حوله بأنه سجن وعقبات ومشاكل...إلخ.

فالأبوية العربية هنا مصدرها المجتمع و السياسة في نفس الوقت بهيمنة لفئة الذكور على المجالين سلطة كانت أو أسرة ومجتمعا، وهذا ما أكد عليه ميجان الرويلي وسعد البازعي في كتابهما دليل الناقد الأدبي حيث قالا: "سارت الأبوية في الدراسات العربية عبر مسارين متصلين في الوقت نفسه: المسار النسوي الاجتماعي، والمسار السياسي الأيديولوجي، والتمييز بينهما يكمن في التركيز فحسب"[15]، وحتى نفرق بين المسارين وجب التدقيق في عناصرهما ومكوناتهما وأهم المظاهر التي تنشأ عنهما، فالمسار النسوي الاجتماعي يركز على الجوانب اليومية والاجتماعية للنظام الأبوي، أما المسار السياسي الأيديولوجي يثبت الأبعاد الأوسع نطاقًا والمتعلقة بالسلطة والسيطرة.

إن الأديب حين تناول قضية الفحولة بطابعها التقليدي المقيت وفق نسق ضحيته المرأة التي تعاني في مجتمع من عدة جوانب، إنما أراد التعبير على إجبارية تغيير هذا الفكر الاجتماعي السائد الذي اتخذه أصحابه كحجة لعدة اعتبارات تهمهم، ومن أهمها البقاء في السلطة وقضاء الحاجيات على حساب غيرهم، "فهي تساهم في خلق التكتل الوهمي لأفراد المجتمع في مجتمع وشكل الطبقات المسودة، بالإضافة إلى ذلك فهي تعمل على تبرير النظام القائم وذلك بإقرار الفروق (وإقامة المراتب) وتبريرها" [16] لذلك وجب تقويض هذه الأنساق وإعادة هيكلتها داخليا حتى تضمن تحقيق العدالة في المجتمع لسير وفق النهج الصحيح.

2.3 نسق الفساد:

النص الروائي "طير الليل" مليء بعدة أنساق منسجمة، يؤدي كل واحد منها إلى الآخر ويكون سببا فيه، فالسارد يمارس سلطته في إنتاج فكره وفق ما يقتضيه موضوعه من معاني هدفها الوصول إلى المتلقي بأنساقها وإحداث التفاعل معها "فإن معظم الشروط التي ينبغي أن تتوفر كي يعمل الإنجاز الكلامي عمله، تنحصر في مدى التلاؤم بين المتكلم

وبين ما يصدر عنه من خطاب، إن الكلام سيكون عرضة للفشل إذا لم يكن صادرا عن شخص يملك سلطة الكلام" [17] فلما نذكر مفهوم الفساد في هذا المقام وجب التطرق إليه من جميع جوانبه حتى تُرسم في مخيلتنا صورة عامة لعدة أطراف تتجاذبه دون الاختصاص بفئة معينة، وقد سبق وتناولنا نسق الفحولة الذي يعتبر ببطريركيته وسلطته أولى أسباب استفحال هذا الفساد، من اتباع لشهوات النفس وظلم للمرأة كما لاحظنا من قبل وهذا يزيد في النفس حقدها ومواصلتها المسير عبر هذا النهج.

وما يزيد انتشار الفساد في المجتمع عدم الخوف من الهيئات العليا(السلطة) في المتابعة والمحاسبة والعقاب، كيف لا تتميز شخصية ميلود صبري بالفساد وهو أم السلطة وأبوها، لكنه بتحايله وأسلوبه الذكي يستطيع قضاء حاجياته دون أدنى رقيب معليا راية الفساد الشرعي في المجتمع، إذ اعتبر الرشوة قهوة حسب ما ورد في الرواية: "هو يعرف أنه لا أحد يحاسب في هذا البلد..الرشوة أو القهوة أو الإكرامية هي في كل شبر من هذا البلد"[18]، لم يشوه سمعته فقط بل وصف البلاد وأنظمتها السياسية بتعاطي الرشوة وعدم المحاسبة عليها وهذا أمر وجب مواجهته، حيث يحتاج في تطبيقه إلى مخطط محكم يشمل كل مسارات الحياة، فمثلا في المجال الديني يجب توفر أسس ذاتية للتاريخ الديني لهذه الأمة بالرجوع إليها والتي تقضي بمضار الرشوة وحكمها الشرعي وعقابها...إلخ.

إن الروائي وهو يعالج قضايا وطنه من جهة يحاول أيضا و بكل قوة التصدي لسموم الآفات الاجتماعية والسياسية، باللجوء إلى المتلقي ووصف الوضع بكل حقارة واستهزاء، ها هو ينتقل إلى موضوع التميز من خلال المظهر لقضاء الحاجيات والحصول على الامتيازات، فلا يمكن لشخص بلباس وسيارة عادية الحصول عليها ولو كان وزير الوزراء في حد ذاته، وهذا موقف تعرض له العقيد كريم سلطاني لما منعه حارس عمارة "طير الليل" من الوقوف عندها حين قدم للتحقيق مع زوجته زهرة "فقال في نفسه إن الحارس احتقره بسبب سيارته القديمة، لو كان على متن سيارة فارهة لفتح له الباب مبتسما، وفرش له الورد الأحمر، وأسمعه أسمى كلمات الترحيب، في هذا البلد صارت المظاهر خاصة السيارات كل شيء قل له ما نوع سيارتك أقل لك من أنت"[19] أي أن مكانتك

وقيمتك أمام الملأ يرفعهما لباس أنيق وسيارة جميلة ولو كنت أسوأ من على الكرة الأرضية أدبا وعلما واحتراما.

وتعتبر شخصية "طير الليل" فريدة من نوعها، فكيف احتمل هذا الجسدُ كل هذه السلبيات لدرجة أنه كان يستعمل مقامه في السلطة لعمليات غير قانونية ولا أخلاقية عبر أنشطة إنسانية تدعو للرحمة والتكافل لكن مضمونها خطر عظيم "شرع المرحوم" ميلود صبري"في نسج شبكة من العلاقات واستطاع كسب ود شيوخ بعض القبائل عن طريق إمدادهم بالسلاح مستعملا جمعية خيرية إنسانية غطاء قانونيا لأنشطته"[20]، وهذا ما جعل كل فرد في السلطة يهتم بأمره وأمر عائلته فقط دون صرف النظر للوضع العام وتنظيمه وتهيئته لصالح الشعب بما يعود بالفائدة على الجميع، للأسف هكذا كانت تبعات ما بعد الثورة المباركة" في الستينات والسبعينات والثمانينات كان قسط لا بأس به من واردات البترول يُصرف لتلبية حاجيات الشعب، أما اليوم فكل واحد يتوكل على ذراعه فقط، وحوت يأكل حوتا، وصغير الجهد يموت" [21]، من هنا تلعب المكانة السياسية دورا كبيرا في تبيان علو كعب الفرد وفرض قراراته والنهب لنفسه وفقط، دون الاعتبار لأدنى حجة يمكنها أن تصوره كمنحرف عن طريقه الذي يسير فيه ويسير معه جل أحبابه والشعب الوحيد هو المتضرر.

فهذه إيديولجية منتشرة في الوضع الراهن ووجب معالجتها والضرب بيد من حديد لأجل إصلاحها، لأنها لو تستمر بهذه الوتيرة ويتغلغل أصحابها في الوطن عامّة بنفوذهم واتصالهم مع أصدقاء يتفقون معهم في أهدافهم الخبيثة لحلت الكارثة، فكل منهم يسعى لأجل الثروة ومغادرة البلاد حتى ينعم بمستقبل فاره، بالرغم من أنه حارب المستعمر وعاش الأمرّين وعاشر أهل الوطن البسطاء الأتقياء وأكل من طيب مأكلهم وعذب مشربهم لكن الكاتب أكد على خبث النوايا فقال: "شدد على أن الفرق بينه وبين أشخاص أمثال ميلود صبري هو كالفرق بين المجاهد والمرتزق، النوع الأول حارب الاستعمار حتى يتحرر وطنه، ثم عمل و لا يزال يعمل ليبني البلد، أما النوع الثاني فاستغل الثورة لخلق الثروة، هؤلاء لم يهتموا يوما بمصلحة الجزائر" [22]، إن ترجمة مكنونات رواية طير الليل على أرض الواقع تحتمل كوارث عالجها عمّارة لخوص نظرا للمسؤولية التي على عاتقه كأديب ملتزم يسخّر

قلمه خدمة لقضايا وطنه، حين يحدد المشكل ويسعى لإيجاد حل له، ولا يكون كشخصية طير الليل بشعارها نفسي نفسي، إن الكاتب ذلك الشخص المحنك الذي يعي ما يقول، إثر تجربة عاشها فأكسبته زادا ثقافيا وتاريخيا وسياسيا لا بأس به.

وتاريخ الأمة كفيل بالذود عنها أو تدميرها، وعمّارة لخوص في هذه الرواية البوليسية عمل على ترسيخ تاريخ الجزائر المجيد تارة، ورفض ما فعله بها الخونة بضرب مقومات صُرف لأجلها الغالي والنفيس تارة أخرى، "فالجزائر بلد الشهداء، صارت بلدا للكوكايين"[23] الذي أدخله القادة إثر هيمنة سهّلت لهم الطريق نحو الرفاهية، ليصيروا رجال أعمال ومستثمرين بأفسد الأخلاق "فالكثير يسمون أنفسهم مستثمرين مثل ابن العميد ليسوا شركاء برؤوس أموالهم، بل بنفوذهم وعلاقاتهم، الاستثمار في العقار والمخدرات نقلة نوعية في تاريخ العصابات"[24].

إذن إن السارد خاض تجربة روايته بأنساق مضمرة عمد حيالها إلى أن يسُد الباب أمام وجه العابثين بالمثل العليا، عبر الهيمنة التي تظهر تبعاتها ضمن فساد ثقافي واجتماعي سببه تسلط سياسي، و "إن ثمة طريقا واحدا لاستيعاب هذا المفهوم، وهو أن ندرك أنه في حين أن الهيمنة الإيديولوجية تخص المجال السياسي، فإن السيطرة المهيمنة تنساح في كل أرجاء المجالات الثقافية والاجتماعية"[25]، فهذا الاستعمال السيئ للسلطة يرغب أصحابه وفق مناصبهم السامية في تحطيم قواعد الهوية الأصيلة وسلبهم إياها، ممّا أنتج ردة فعل ناهضت هذا التيار لتتمثل في أعمال أدبية بفنية تسعى لترسيخ الثقافة الوطنية الجزائرية وتقويض ما نتج عن هذه الهيمنة وإعادة بناءه من جديد.

4. خاتمة:

إن الثقافة الوطنية الجزائرية موضوع تطرقت إليه الرواية البوليسية المعاصرة، فاهتمت بمسائل الهوية وحمايتها من التأثيرات السلبية، مع التركيز على الأنساق الثقافية التقليدية وتقويضها مثل الفحولة التي تسهم في ترسيخ الفساد والهيمنة غير العقلانية، وذلك عبر النقاط التالية:

1-الرواية البوليسية الجزائرية المعاصرة مثل "طير الليل" لعمّارة لخوص قوّضت نسق الفحولة التقليدية كونه يساهم في تثبيت الفساد والهيمنة المتنوعة خصوصا الهيمنة على المرأة، وما يتبعها من اختلال في الموازين المنظمة لشؤون المجتمع وشخصية ميلود صبري الملقب بطير الليل خير مثال على ذلك.

2-نقد الواقع الاجتماعي والسياسي: إن السارد رواية طير الليل تتناول الواقع الاجتماعي والسياسي للجزائر، حين أشار إلى الفساد المتجذر في النظام السياسي بجميع مظاهره وعدم المحاسبة عليه جرّاء تمتع أصحابه بامتيازات خاصة، تتطلب وضع حد لهم حتى لا يتم العبث بالمقومات الوطنية.

3-يسعى عمّارة لخوص إلى تعزيز الهوية الثقافية الجزائرية والدعوة إلى التمسك بجذورها الثقافية والدينية دون الانسلاخ مع التيار الاستعماري المناقص للقيم السامية.

4-يُظهر الأدب البوليسي الجزائري من خلال هذا العمل الروائي التزام الأدباء بمواجهة الفساد والهيمنة، بالدعوة إلى العدالة والمساواة، من خلال نقد الأنساق الثقافية السلبية (كالفحولة التقليدية والفساد) التي انتشرت في المجتمع والثقافة جرّاء الفساد السياسي، لتأسيس ثقافة وطنية تقوم على أسس متينة تجسد العروبة المجيدة.

5. الهوامش:

[1]- عبد الله شريط، من واقع الثقافة الجزائرية، ط2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر،1981، ص7.

[2]- عصام واصل، الرواية النسوية العربية، مساءلة الأنساق وتقويض المركزية، ط1، عمان، 2018، ص 52.

[3]- غازي بن عبد الرحمن القصيبي: العولمة والهوية الوطنية، مقالات مكتبه العبيكات، ط2، 2002، ص 09.

[4]- محمد فاسي: دراسات في الرواية الجزائرية، دار القصبة للنشر، الجزائر، 2000، ص 06.

[5]- عمّارة لخوص، طير الليل، دار الحبر، الجزائر، ط1، أكتوبر2019، ص 45-46.

[6]- سماح عبد الفران: ثقافة النص، قراءة في السرد اليمني المعاصر، شركة دار الأكاديميون للنشر والتوزيع، (عمان- 15 الأردن)، ط1، 2016م، ص17.

[7]- محمد شوقي الزين: تأويلات وتفكيكات، فصول في الفكر الغربي المعاصر، ط1، منشورات ضفاف، 2015، ص 119.

[8]- ميجان الرويلي، سعد البازعي: دليل الناقد الأدبي، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط03، 2002، ص: 108.

[9]- عبد الله الغذامي، النقد الثقافي؛ قراءة في الأنساق الثقافية العربية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط02، 2001، ص 11.

[10]- عمّارة لخوص، مرجع سابق، ص11.

[11]- عمّارة لخوص، مرجع سابق، ص 12.

[12]- عبد الرزاق الدواي، في الثقافات والخطاب عن حرب الثقافات، حوار الهويات الوطنية في زمن العولمة، ط01، بيروت، ص155.

[13]- نفس المرجع، ص195.

[14]- عمّارة لخوص، مرجع سابق، ص22.

[15]- ميجان الرويلي، سعد البازعي، مرجع سابق، ص 64.

[16]- بيير بورديو، الرمز والسلطة، تر عبد السلام بنعبد العالي، ط3، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، 2007، ص 50.

[17]- نفس المرجع، ص59.

[18]- عمّارة لخوص، مرجع سابق، ص 51.

[19]- المرجع السابق، ص 53.

[20]- نفس المرجع، ص80.

[21]- نفس المرجع، ص 82.

[22]- المرجع السابق، ص 108.

[23]- نفس المرجع، ص 108.

[24]- نفس المرجع، ص 163.

[25]- آرثر إيز ابرجر: النقد الثقافي، تمهيد مبدئي للمفاهيم الأساسية، تر: وفاء إبراهيم، رمضان بسطاويسي، ط1، المجلس الأعلى للثقافة، مصر، 2003، ص 109.